اين انتم من حقوق الانسان عندما تساهمون في اضطهاد المرأة؟

د. اكرم شلغين*

■ نجحت سابقاً في التهرب من الكلام عن قضايا المرأة في بلادنا، والهروب ليس لانني افاضل في اهمية مسائل دون اخرى والا لكان للمرأة الاولوية لما تستحقه قضيتها من تفحص ومراجعة، ولا لانني اعتقد ان الكتابة عن المرأة هو شان احق به الاخيرة نفسها، بل لانني كنت، وما زلت، اخشى الافراط في التبسيط في العرض لموضوع بالغ الاهمية كهذا وان يؤدي التركيز في الكلام عن حقوق المرأة ضرورةً، بالشكل الذي يسمح به حجم مقال معد لمناسبة، الى صرف الانتباه، من بين الاغفالات الاخرى، عن ابعاد الموضوع السوسيوبوليتيكية والجذور الثقافية له، الا انّ ما تفوّه به امامي من يُفترض ان يكون مدافعاً عن المرأة بحكم عمله يدفعني الى الكلام عما تحاشيت الخوض به سابقاً، ففي جلسة يتحدث فيها مجموعة من السوريين عن الشأن السوري وعما يشبه الغياب التام للجيل الشاب عن ساحة العمل الوطني والضعف الملحوظ في مشاركة المرأة بالعمل السياسي، انبرى احد دعاة حقوق الانسان السوريين ليتحفنا بمفاهيمه وملاحظاته حين قال ان المنظمات والاحزاب تفتقر الى العنصر النسائي باستثناء حزب العمل الشيوعي لان اعضاء الحزب المذكور ـ على حد قول داعية حقوق الانسان هذا ـ «بيجتمعوا وبعدين بيختموا بحفلة نيا...ـة.....» (اي يعقدون الاجتماعات السياسية ثم يختمونها بحفلة جماع...).

لو تناسينا لبرهة الصدمة في قول يأتي ممن اتى منه وتعاملنا معه من اي باب شئنا، كان ذلك بسعة صدر وتفهم على اساس «اغفر لهم...انهم لا يدرون ما يفعلون» (ويقولون) ام من منطلق العكس وهو «لا تغفر» لهم. انهم يدرون ماذا يقولون وماذا يفعلون، فاننا لن نتناسى ان هناك مشكلة كبيرة ثنائية الاوجه (بخصوص المرأة وبخصوص الجنس) قابعة في تفكير «داعية حقوق انساننا» وامثاله يجب تبويبها، توصيفها والحديث عنها، فالقول المقتبس اعلاه يحكي، اكثر من اي شيء آخر، عن التركيب الذهني لقائله وكيف ينظر الى المرأة وكيف انه يُضيّق اهداف العمل السياسي ليحصرها ضرورة في الممارسة الجنسية بما يفهمه من وجود المرأة جنباً الى جنبٍ مع الرجل في ميدان العمل السياسي؛ بل ويتعدى قوله الحدود المعلنة ليصل ضمناً في مدلوله الى حد اتهام من ينخرط في العمل السياسي مع شريحة ما ان دوافعه جنسية. لا شك ان لصاحبنا نظرة متخلفة للمرأة حين يراها تعمل وحين يراها تنشط وحين يراها بالمطلق محض مشروع جنسي، واذا ما اردنا توصيف حالته لا بد لنا من ان نركز عموماً على الشروط التي انتجت مثل هذه الذهنية. اذ لا يوجد لمفاهيم الجنس والجنسوية لدى «داعية حقوق انسانناً» معنى او معان متأصلة (inherent) في داخله لكنه بالتاكيد اكتسبها خلال مراحل بدات مع تنشئته وتثقيفه (enculturation) مروراً بكل شيء آخر الى ان حط على موقع تختزل فيه المرأة الى مشروع جنسي، ولا يستطاع رؤيتها من خلاله على انها الشريك المعادل للرجل.

ليس زائداً، ونحن نتفحص ذهنية ومفاهيم داعية حقوق انساننا، ان نتذكر هنا ما اشار اليه، في سياق الدراسة التاريخية الاجتماعية، فريدريك انجلز من خطأ تاريخي للمرأة ارتكبته بحق نفسها في الفترة الانتقالية من المجتمع الامومي الى المجتمع الابوي حين ارتضت ان تكون اداة لنقل الملكية من السلف الذكر الى خلفه حيث قبلت بالدور الذي انيط بها، الامر الذي اصبح بداية لسلسلة مفتوحة النهاية من الممارسات الجائرة بحق المرأة. ولا نأتي بالجديد عندما نلاحظ معاً ان المجتمعات البشرية ركّبت كل شيء عبر التاريخ بشكل يتحيز به ضد المرأة، يهمشها، ويغيبها. وهذا لا يبدأ مع النواميس والمعايير اللغوية التي تركز مفرداتها، بشكل عام، على الشخص المذكّر على انه الموجود، الفاعل، والذي تقاس له، وعليه، المرأة وكافة المخلوقات والاشياء الى الحد الذي يجعل الكثير يرتبك في الاستخدام اللغوي الدقيق في تسمية المرأة جندرياً (من الـ gender او جنسانياً من الجنس في التصنيف اللغوي) في موقع عملها، فعلى سبيل المثال لا الحصر، لا يدري ان هي «عضوة» ام «عضو» في مكان كذا، ولا يبدأ التحيز ضد المرأة مع الديانات التي تشرعن في معظم الاحوال لعلاقة المرأة التبعية بالرجل او على اساس من انها متاع (في الدنيا ومتاع في الآخرة) لا اكثر او ان وظيفتها تنحصر بشؤون الاسرة، ولا ينتهي بالتركيب الثقافي الاجتماعي الذي يقرن حضور المرأة في محفل عام مع الرجل بنوع من التدخل الخطر في ما يوصف بـ«نظام الاشياء» (the Order of Things) الذي لا يجوز الاخلال او المساس به. وبالتاكيد يُفهم ذلك ضمن اطر عديدة في طليعتها امتلاك ما يسمى بـ«القوة» (power) وممارستها من قبل الذكور في المجتمعات.

من البديهي، في ظل ممارسة القوة، ان يكون هناك شبه تزاوج ما بين الخطابات المنتجة برمتها ذكوريا لتركيب قواعد اجتماعية يُشرعَن لها تارة عبر الدين واخرى عن طريق تسويد العرف والعادة (Norm) وثالثة من خلال «ضرورة» مُنتَجة لتناسب زمان ومكان انتاجها. من هنا، وتطبيقاً للايديولوجيا الذكورية وخطاباتها، تصبح المرأة الغائبة (بالادق المُغيَّبة) عن المحافل العامة هي المعتمدة والتي تمثل «صنفها» (او جنسها) بخيال وتصور ومفهوم الرجل، واما المرأة الحاضرة (خلافاً لما ينظمه عرف، عادات، تقاليد ودين «نظام الاشياء») فتشكل تحدياً للرجل وما ارسى له من قواعد تخص المرأة والعلاقة معها وما يتوقعه منها. وبالرغم من ان هذا التحدي لا اساس له واقعياً ولا يشكل منافسة جوهرية للرجل او ما الى ذلك، ما عدا ما رُكّب اجتماعياً (socially constructed)، الا ان الرجل يقابل ما فهمه «تحدٍّ» بكل ما يستطيع من وسائل عنيفة، بما فيها العنف الجسدي، والتشهير والتشويه: مرة كون المرأة خرجت عن القواعد العامة التي تقتضي تغييبها واخرى، لا تقل اهمية عن الاولى، كون عملها يحد من تبعيتها الاقتصادية للرجل (وهو ما لن نبحث به هنا)، فوجود المرأة في العمل والمحافل العامة، من هذا المنظار، كاف لدمغها بكاسرة المألوف او المتحركة بدافع «الغرائز» وما يشبه ذلك من صفات تشيطن، تشوه وتعهر المرأة الحاضرة. ضمن اطار حضور المرأة وغيابها عن الميدان العام يبقى ان نتذكر ان الافظع في علاقة الرجل بالمرأة هو الوجه الاستغلالي حين يرغب بحضورها ما دامت، حاضراً او مستقبلاً، ستبقى خارج دائرة حياته الخاصة، وهنا لا نرى المبرر لذكر الامثلة التي لا تحصى على هذا الشكل من العلاقة بل نذكر بما تنبهت له الاديبة الفلسطينية سحر خليفة حين وضعت هذه المشكلة، وباكثر من جانب، في دائرة الضوء بسردها البعض من ضيم المرأة الفلسطينية في علاقتها مع الرجل والتي تتشابه الى ابعد الحدود مع هموم معظم نساء منطقتنا ـ وان كان ذلك بتفاوت من حيث الشكل الخارجي لطبيعة المؤرقات ـ وفي اي بلد في المنطقة، ففي مثال لخليفة تتكشف انتهازية الرجل الذي لا يستطيع ان يفكر بعلاقة ارتباط زوجية مع هذه المرأة او تلك بناء على اسس تتماهى في واهيتها حين تكون الذريعة ان تلك الفتاة عندها «ثلاثة مسيلات» (اي تعرضت لمسيلات دموع اثناء مشاركتها بمظاهرة لم يعارضها الرجل حينها بل فرح انطلاقاً من انها تبغي «مؤازرته»).

من البديهي ان لا تقتصر صيغ مسألة الهيمنة الذكورية في المجتمعات المركبة على هذا النحو من التباين (disparity) على اعادة انتاج الخطاب الذكوري بل تتنوع اشكال وانماط التعاطي في المجتمع الى ما فيه، الشرعنة والتطبيع بحيث تصبح مظالم الذكر ضد الانثى ممارسة اعتيادية لحق طبيعي غير قابل للنقاش، بل واكثر حين لا ترى المرأة في الجور المطبق ضدها من قبل الرجل الا حكمة دينية او ضرورة اجتماعية، نرى ذلك بأنماط التعامل الاجتماعية السائدة عموماً ونراه في اصغر تفاصيل مظاهر الحياة اليومية، فنادراً ما نسمع ان تسخير المرأة للاعمال المنزلية يدخل في تصنيف «العمل» بحد ذاته بل هو واجب طبيعي على المرأة واقل اهمية من ان يقبل النقاش حتى لدى الكثير من النساء. ونراه اوضح في تبعية المرأة الاقتصادية الاجتماعية للرجل، الوضع الذي يتمظهر بممارسات تبدأ بتخلي المرأة الطوعي عن الكثير من ذاتها لصالح الرجل بدءاً من التخلي عن اسمها عند الزواج لصالح اسمه وكنيته وبنفس الوقت لتصبح عرفاً زوجة فلان، بل واصبح العرف ان المرأة نفسها تقبل هذا النموذج من التبعية وتعتبره اعلاء اجتماعيا من شأنها حين تكنى بزوجها، مروراً بقبولها ان دورها الاجتماعي يتلخص في بقائها في البيت للاهتمام بالشؤون المنزلية والأسروية، والغريب اكثر ان البعض يرى بهذا الدور المغيّب للمرأة تحرراً لها!

نعود لصاحبنا داعية حقوق الانسان السوري لنوضح انه اكتسب التحيز ضد، الاستعلاء على، والشكوك في المرأة مع كل ما تشربه من كراهية ونظرة دونية في حياته منذ صغره وحتى اللحظة التي نضح فيها بما يحتويه اي عندما وازى بالضرورة وجود المرأة في حزب سياسي بطقوس جماع جنسي، تشربه عندما تعلم دينياً ان كلمته اعلى من كلمتها، وان حقه في الميراث والتملك يساوي حق امراتين، وعندما تعلم ان النساء يشغرن من الوفاء حين قرأ: «يكسرن قلبك ثم لا يجبرنه وقلوبهن من الوفاء خلاء»، تعلمه مع ما تعلمه من الامثال و«الحكم» و«الاقوال المأثورة» التي طالما افتخر الذكور وطُربوا بترديدها، وتطويرها، مثل «كل النساء عاهرات الا امي..» ويتابعون «ومع ذلك فهي امرأة»! تعلمها مع اول ما فعله عندما فتح عينيه في الصباح وادار المذياع ليستمع لبرنامج صباحي احبه وبدأ يومه به مثل الغالبية عندما سمع «مرحباً يا صباح» حيث دس بين اغاني فيروز (التي تحبها ونقدرها حقاً ولا تعليق لنا عليها) بـ«النصح والحكم» حين سمع صوت مقدمة البرنامج تقول: «يتطلع المرء لفم المرأة للابتسامة التي يرسمها ويتطلع لفم الرجل للكلمة التي يقولها» ومن ثم تتبعها بالقول «المرأة التي ليس لها اسنان جميلة تستطيع ان تضحك بعينيها»، وتعلم ان المرأة هي مادة تجريب وتفريغ شحنات عواطف الرجل، وحتى عندما اراد ان يتغنى بالمرأة وبحبها فقد تعلم من شعرائنا الكبار ـ والذين احبوا وجربوا من النساء «عشرين الف» ـ ان يرى في المرأة فقط «فما»، «عينين»، «وجنتين»، «نهدين» و«..و..» من اختزال وسمات (blazon) لا تخرج من دائرة الوصف الجسدي.

واذ نحاول فهم داعية حقوق انساننا على هذا النحو من تجسيد لمجمل الشروط التي انتجته يبقى لزاماً علينا ان نتساءل فيما اذا كان يتوجب ان نأخذه بالرعاية ونقول انه يستحق الشفقة لانه ضحية بحد ذاته ولا يعرف افضل من ذلك ام ان الصواب ان نواجهه، وبالاخص كمن يزعم الدفاع عن حقوق الانسان، بالشرخ الكبير والتناقض الحاد بين ما يدّعيه قولاً من دور اجتماعي حقوقي وبين ما يجسده واقعاً اتهامه ـ عن وجود العنصر النسائي في حزب العمل الشيوعي ـ من ضرر اجتماعي سياسي! واذ استعرض ما عرفته من غيره، والذين يتبجحون بدورهم معه متنافرون معه في الصميم، فانني اميل الى الاعتقاد انه يعي ماذا يقول وماذا يفعل، ويذكرني هذا بعيّنات اخرى من متعلمي «بلادي» في تعاملهم بهذا المضمار، واورد واحدة منها هنا. في النصف الاول من التسعينات زارني في بريطانيا احد السوريين الذين تصادف وجوده هناك بنفس الفترة التي كنت بها هناك، بعد قليل من وصوله الى سكني اخرج كاميرا تصوير وبدأ بالتقاط الصور لجاراتي في السكن في نفس المنزل وسط استهجانهن لسلوكه خاصة حيث كان يبرر ذلك بانه يريد ان يحكي في سورية ليقول «انظروا الى المرأة في العالم..كيف تعيش...» الخ وبعدها بدأ يحدثني عن همومه الكثيرة في سورية حيث هناك «اضطهاد حقيقي» في التعامل مع المرأة ويريد التصدي للمشكلة من خلال عمله في التعليم الجامعي حيث سيروج لموضوع النسوية (Feminism) ليعلم الطلاب والطالبات في «الجامعة» بسورية عن المرأة وحقوق المرأة ونصرة المرأة، واطنب في الحديث عن المرأة حتى ظننت انه قاب قوسين او ادنى من ذرف الدموع بسبب كثرة المظالم الواقعة على المرأة في «بلادنا» بعد ان تفتقت جراحه لدى رؤيته المرأة في اوروبا. بعد بضع سنوات من ذلك، والمشهد هذه المرة ليس في اوروبا بل في سورية وفي الجامعة باللاذقية وفي مكتبه، يتناول ذات «نصير المرأة» سماعة الهاتف ويتكلم مع شخص سمعته يخاطبه بـ«سيادة المقدم نزيه...» فيطلب منه «اربعة عناصر جدعان...» يحتاجهم في المساء ليقوم معهم بجولة داخل الجامعة من اجل تربية هالـ«كام طالب حقير» ومن يقفن معهم في العتمة من «البنات الفلتانات»!! كدت ان لا اصدق ما رايته وسمعته! فلم اكن اتوقع ان كلامه لي في بريطانيا عن تحرر المرأة يعني في سورية ان تبتعد الطالبة الجامعية عن الوقوف مع زميلها الطالب تحت طائلة المسؤولية والشرشحة من قبل العناصر «الجدعان» يراسهم نصير المرأة الاكاديمي، ولم اعد اعرف فيما اذا كان صاحبنا ذا نوايا «طيبة» في بريطانيا ولسبب ما لا يستطيع المضي قدماً في الجهر بها في سورية! ام انه، في الواقع، يريد التغيير نحو الاسوأ في سورية! لكن، وفي كل الاحوال، لا اسرح بتفكيري الى الحد الذي اخال به ان سلوكه ليس مقصوداً ومدروساً، فكيف تُفهم المناداة بحقوق المرأة السورية في جلسة غير رسمية وضيقة في بريطانيا ونقمع المرأة عندما نكون في ساحتنا ونحن في موقع القرار!؟ كيف يمكن تفسير سلوك من يدعي المواقع الطليعية بخصوص قضايا المرأة في السر واما في العلن فتقوده دوافع يمقتها الجميع الا من يفتتي بآراء اصولية وباعراف بالية!؟ وسحباً على ذلك نسأل من يدعي العمل من اجل حقوق الانسان في سورية عما اذا كانت الحقوق تشمل المرأة ايضاً لديه!

تكثر الاسئلة حول هذا الموضوع، وتكثر معها الحاجة لتذكير المرأة بابراز صوتها وعدم الاستسلام لصوت الظلم وثقافة الاضطهاد، وان عليها ان تقول انها تعشق الحرية وتكره الظلم، وتستنير بالحرية ولا تريد ان تستظلم بمفاهيم بائدة ولا بقلب قبيسية لونه اعتم من لون ثوبها، وكذلك لتذكير العلمانيين بشكل عام في سورية بأن صوتهم سيختفي ما داموا غير جادين في اسماعه والدفاع عنه.

* كاتب من سورية

وماذا بعد الزرقاوي؟

د. عبد الحميد الكاتب*

■ وأخيرا قتل الزرقاوي، هكذا أعلنت قوات الاحتلال الأمريكية في العراق، فبعد سنين وشهور من ملاحقته والإعلان عن ملايين الدولارات كمكافأة لمن يدلي بمعلومات عنه، وبعد عشرات البيانات الأمريكية التي ادعت محاصرته ومطاردته وأسر العشرات من مساعديه وقتل كبار معاونيه، وعقب مئات العمليات الإرهابية التي قامت بها قوات الاحتلال الأمريكية بحق الشعب العراقي بحجة تواجده في هذه المدينة أو تلك، فكم من قرية قصفت ومدينة استبيحت والمئات والآلاف قتلوا وشردوا من قبل قوات الاحتلال وأعوانهم بهذه الدعوى، أقول بعد كل هذا يأتي هذا الإعلان.

وحتى نعرف ماذا سيكون بعد مقتله لا بد أن نعرف من هو الزرقاوي أولا، فهل هو ذلك المجاهد الذي خرج بروحه وماله تاركا الأهل والولد، والذي زعزع العرش الأمريكي وأرق مضاجع قوات الاحتلال في العراق من خلال مئات العمليات الجهادية، أم أنه ذلك الإرهابي التكفيري الذي كان اللاعب البارز في الحرب الطائفية في العراق! لقد كانت صورة الزرقاوي مشوشة طيلة هذه السنوات، ولعبت آلة الإعلام التابعة للاحتلال والسائرة في ركابه دورا كبيرا في تشويش الصورة، وربما ساعد في هذا التشويش ما أصدره الزرقاوي ذاته من مرئيات ومسموعات وتبنيه لبعض العمليات ذات الطابع الطائفي أو سكوته على ما نسب له منها، وسواء هكذا كان الزرقاوي أم ذاك فقد رحل بإعلان رسمي أمريكي وتأكيد من قبل أنصاره، فماذا بعد رحيله؟

لا شك أن السيناريو الأمريكي لم ينته بعد، ولا ريب أن الإرهاب الأمريكي مستمر وجرائمه متكررة، ولذلك فإنهم بحاجة دائما إلى شماعة يعلقون عليها جرائمهم، وعليه فإنهم لن يلبثوا عن البحث عن زرقاوي آخر، وحتى ذلك الحين ماذا سيعمل العراقيون بكل أطيافهم، وماذا سيفعلون بجميع مواقفهم من الزرقاوي؟

فهل سيكف التكفيريون القادمون من إيران عن قتل أهل السنة، وهل ستتوقف فرق الموت التي تجوب شوارع العراق بما فيها بغداد ليلا ونهارا عن اعتقال الأبرياء السنة ثم تعذيبهم قبل قتلهم ورميهم بين النفايات، أم هل ستتابعهم قوات الأمن العراقية الجديدة لكف أذاهم عن الشارع العراقي؟ هل ستقوم الداخلية والدفاع بواجبها الوطني بعد تنصيب وزراء (أكفاء جدا ومستقلين جدا)، فوزير الدفاع يمثل السنة وهو من شارك في قتل أبنائهم في الفلوجة، ووزير الداخلية مستقل جدا وهو من أعضاء الائتلاف الشيعي!!!، فهل سيعمد هؤلاء الوزراء المستقلون إلى مطاردة هؤلاء التكفيريين أم أن الزرقاوي وحده كان تكفيريا، كما يصفونه؟

وهل سيكون هذا درسا بالنسبة لأتباع الزرقاوي بعد رحيل قائدهم، فيعمدون إلى التوحد مع بقية فصائل المقاومة، فهل سينبذون سياسة قتل معارضيهم ومخالفيهم في الاجتهاد، فيقللون من أعدائهم ويفوتون فرص كشفهم من قبل أعدائهم المحتلين، لقد آن الأوان لجميع المجاهدين العرب في العراق أن يدركوا أن شعب العراق يرحب بهم ما داموا يعملون على قضيتهم ألا وهي إخراج الاحتلال فقط، فإذا ما شعر أبناء العراق أنكم بدأتم توجهون حرابكم إلى صدورهم هم لمجرد الاختلاف في وجهات النظر أو في المسائل الاجتهادية فسينبذونكم، وإن الكثير منهم ملتزم بالمثل السائد (أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب) فإياكم أن تشعروهم أنكم غرباء عنهم، وإياكم أن تسمحوا للمحتل بزرع هذه الصورة عنكم في أذهان الناس، وعليكم أن تبذلوا جهدا في إفشال ما صوركم عليه الاحتلال بأنكم جئتم لقتل طائفة من العراقيين.

وهل سيكون مقتل الزرقاوي سببا في نسيان الجرائم الأمريكية وأخيرها ـ وليست آخرها ـ مجزرة حديثة والإسحاقي؟ هل سيتراجع المالكي الذي وعد ـ ولم يعهد عنه الصدق من قبل ـ بأنه سيفتح تحقيقا عراقيا خاصا، أم سيقول الشرفاء لأمريكا أن حجة الزرقاوي قد انتهت فآن الأوان لفضح تلك الجرائم، أم سيسكت الجميع بذريعة أن الأمر لا يجدي، فماذا فعلنا بالتحقيقات السابقة حتى نفعل بهذه، فأين التحقيق في جرائم (أبو غريب) وغيرها، بل أين التحقيق في جريمة استباحة العراق، وهل أصبح الدم العراقي يستحق التحقيق، ألم يصبح أرخص دم اليوم؟!

وأخيرا نقول للاحتلال: هل انتهت المقاومة ضد وجودكم في العراق بمقتل الزرقاوي، ألا تعرفون أن قضية المقاومة متأصلة في دماء المسلمين، بل هي قضية متلازمة مع وجود الاحتلال على أي أرض، ألا تعرفون أن الزرقاوي جزء من المقاومة وليس هو المقاومة، ألا تدركون أن مقتله لن يضعف من قوة المقاومة بل ربما سيكون وقودا يؤجج اوارها، ألا تعرفون أن الشهادة مطلب جميع المجاهدين وهي إحدى الحسنيين، وأنكم بقتلكم إياه قد مكنتموه من نيل مراده وتحقيق ما كان يسعى إليه؟

* كاتب من العراق

حقوق دولة الاستبداد

د. خالد الطراولي*

■ «ان الاستبداد داء اشد وطأة من الوباء، اكثر هولا من الحريق، اعظم تخريبا من السيل، اذل للنفوس من السؤال» هكذا تكلم الكواكبي يوما فأوجز واوعى، ولم يعد الحديث عن الاستبداد في حاضرنا غريبا عن ديارنا، فقد تملك ماضينا وسوّد العديد من اطرافه وساهم في نكسة حضارية لم نستطع الى يوم الناس هذا تجاوزها، بل التحق مستبد اليوم بمستبد الأمس وفاقت النسخة الاصل وتجاوز الاحفاد «مناقب بعض الاجداد» واصبحت دولة الاستبداد جزءا من يومنا وليلنا.

لدولة الحق حقوق لمواطنيها وواجبات، جعلت منها اساس عدلها وتحضرها، والعدل اساس العمران واحترام حقوق الرعية نمو سليم للبنيان... «وان الله لينصر الدولة العادلة ولو كانت ظالمة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة» فكان بناء الحضارات الصالحة والمزدهرة يتأسس على عدل بين الاقوام واحترام نسبي لحقوق الانسان. ولم تتخلف الحضارة الاسلامية عن هذا «القانون»، حيث شهدت ايام عزها محطات مضيئة، سبقها تنظير تأسس على فهم تحرري للاسلام، فغلبت اقوال الانصاف وممارسات العدل واحترام حقوق الفرد والرعية. ثم انتكست الاعلام تدريجيا، فغزا التوريث منصة الحكم، وتعلق الخوف والتهيب بعقلية الفقيه والعالم، وانسحبت الرعية نحو متاريس الجهل والتقوقع، فغلب الاستبداد ورضيت الرعية بحقوق مسلوبة او مغشوشة، وكانت المراة اول ضحايا دولة الاستبداد ومؤشر السقوط الحضاري بعد سنوات المجد...

هل يمكن ان نؤرخ لدولة الحقوق في تاريخنا ولدولة الاستبداد؟ ام ان دولة الحقوق كانت امنية وآمالا عايشت مواطن المشاعر والوجدان ولم يرَ لها اثر على الارض؟ لن يخطىء مؤرخ عادل وقارئ منصف لتاريخنا، الا ان يلاحظ ان دولة الحقوق قد شهدها امسنا ولو في زمن قصير وعابر، انسحبت مع انسحاب منظومة القيم التي حملها المقدس القولي والفعلي وهيمنة قراءات التزييف والتركيب والترقيع والترويج... انسحبت الشورى نحو مواقع النصيحة والاخبار والاعلام، فاصبحت مخبرة وليست ملزمة، وخطف المستبد مصطلحات وقيما، والحقها بنسبه، وجمع المتناقضات داخل بناء اصطلاحي واحد وعجيب، لتبرير ممارسات الغصب والهيمنة، فظهر المستبد العادل كرحمة من السماء لاعطاء دولة الاستبداد طلاء مغشوشا، ظاهره فيه النعمة والخلاص، وفي باطنه العذاب والجور والعدم، وسمح للرعية ان تبقى مشدودة الى الخواء تنتظر مهديا بدون عناء.

ولقد ابرزت كتب التاريخ رغم ان بعضها كتب تحت انظار الحاشية وبحضور السلطان، هذا الافتراق ثم الطلاق بين تنظير وممارسة عادلة ومنصفة، غلبت على مشهد سياسي واجتماعي في ما سمي لاحقا بصدر الاسلام، وبين حيف واستعلاء وهضم لحقوق وتعد على مبادئ وثوابت، مثلت «حقوق» دولة الاستبداد. ورغم ان السماء لم تكن قاتمة السواد في هذه المرحلة، حيث تظهر من هنا وهناك ومضات وفلتات، عبّرت عنها شخصيات تاريخية مرموقة او وقائع مشهودة، غير ان الاتجاه العام كان يسير نحو مناطق الظل والسقوط.

لدولة الاستبداد في تاريخها حقوق، وفي حاضرها حقوق لم تتغير ولم يشبها داء الشيخوخة والهرم، ولم يطلها قانون التطور والتحديث، وظل مستبد اليوم في علاقة ودية وتواصل وفيّ مع مستبد الامس... حتى ان حاكم الاحفاد طنناه قد تميز في بعض اوصافه عن حاكم الاحفاد، فاكرمنا بمجيئه من غير وراثة وان كانت مناطق الظل والسواد كثيرة في توليته لهذا المنصب، ثم ما لبث ان ثار على جمهوريته وسلم الحكم لابنائه فاصبحنا رعايا في جمهورية يحكمها ملك! فالتحق سواد اليوم بسواد الامس وتكرم علينا بحقوق دولة الاستبداد.

حق الخوف...

للمواطن ان يخاف، له ان يهاب الليل اذا اسدل ظلمته، والفجر اذا طرق طارق يفزع الجيران وينغص الاحلام... ورغم ان الفوانيس قد عوّضت الشموع فقد بقينا نهمس في الظلام وننظر في الظلام واطفأنا الشمعة ونسينا الفانوس!

حق الخوف مكتوب على جبيننا كما اعلمنا به حكامنا... «والذي خاف نجا» هكذا قالت بعض امثالنا وهكذا تشكلت عقلية بعضنا ان لم تكن جلنا! فسارت ثقافة تمشي في الاسواق وتغض الطرف عن انحرافاته وتصحبنا في الشارع فلا نمشي الا على اطرافه تاركين الوسط لغير اصحابه، حتى لا نميل ميلة واحدة فينتهي الشارع الى جبّ والسوق الى مقبرة... ثقافة الخوف تعايش يومنا وليلنا وتصحبنا الى بيتنا، فترانا نفرغ ذلنا وهواننا على من هو اتعس حالا منا فترانا خائفين مظلومين خارج الدار مخيفين ظالمين داخله. كان خارج البيت سجنا كبيرا لنا، فجعلنا داخله سجنا ضيقا لامراتنا، فاصبح الخوف ملازما لكل ركن في بيتنا واصبح عقيدة في مجتمعنا.

حق ملازمة البيوت

للمواطن البقاء في بيته وترك الشارع للصعاليك والمشاغبين، ومشاركة الاهل اعباء الدار، ففي دولة الاستبداد المراة عورة والرجل عورة والمساواة التامة والمطلقة في البقاء داخل الاسوار. الخروج عقيدة اظهرت افلاسها، والخوارج جماعة مقتها تاريخ الامة وراحت رؤوسهم تتطاير دون ان يثبت لهم قرار... وملك غشوم خير من فتنة تدوم، فلا خروج الا باذن ولا دخول الا باذن، ومن دخل بيته فهو آمن ومن دخل بيت السلطان فهو آمن، ومن تلكأ وتباطأ وتجرأ على البقاء خارج الاسوار فلا يلومنّ الا نفسه.

حق الصمت...

والسكوت من ذهب خاصة عند صولة الاستبداد، والساكت على الحق في معجمه عاقل اخرص عرف طريق السلامة فلم يشذّ عنه، شعاره «ابعد عن راسي واضرب» فلا يكفي الصمت بل من حق المواطن ان يعين الاستبداد على الضرب والتمكين...وكم صمت افراد عما يحدث بباب الجيران حتى اذا حلت البأساء ببابهم بقوا يعيشون مأساتهم لوحدهم وقد نسوا انهم اكلوا يوم اكل الثور الابيض.

حق الجهل...

يمكن للمواطن ان يجهل او يتجاهل ما يدور حوله، من حقه ان لا يفتح راديو ولا تلفاز، يمكنه ان لا يضيع وقته في الابحار على امواج الانترنت العاتية خاصة اذا كان يسبح ضد التيار، يمكنه ان لا يرى الا بعين واحدة، ان لا ينتمي الا الى فرقة واحدة، ان يقرأ صحيفة واحدة ان يعيش ويموت ويحكمه رجل واحد واسرة واحدة بصوت واحد واسواط متعددة...

حق التملق...

للمواطن الوفي حق الرشوة والارتشاء، له الحق ان ينبطح اذا خير فقدان الاجنحة وصعود الجبال ومعانقة السماء، فالارض جعلت مكانا آمنا للزواحف ولا يجب ان ينسى ان الحاجب بالباب ينتظر نصيبه من العطايا والنعم! عليه الانسحاب بهدوء حتى لا يوقظ اهل البيت وتهتز الاركان ويسقط البنيان.

ختاما

هذا غيض من فيض فحقوق دولة الاستبداد لا تحصى وانما توقفنا عن سردها استحياء من حكامها فقد نهينا ان نمجد ونذكر المحاسن في حضور صاحبه ونحن نعلم ان آذانه كثيرة ويده طويلة حتى لا نقصم ظهره ويتولاه الرياء فيتخلى عن محاسنه وينزعنا هذه الحقوق، فرأفة بحالنا وحياء من حكامنا نتوقف عن هذا السرد ونواصل الانتظار..

* رئيس اللقاء الاصلاحي الديمقراطي
ktraouli@yahoo.fr

الاستفتاء والغباء السياسي والدماء المنتظرة!

د. جمال المجايدة*

■ هذه هي بصراحة نتيجة الحوار الوطني الذي دعت اليه حماس وفتح وبعض الشخصيات الوطنية الفلسطينية، اسوقها اليكم كما يلي: سامي ابو زهري الناطق باسم حماس يرفض الاستفتاء على الوثيقة خوفا على نتائج الانتخابات وحرصا على الديمقراطية، والدكتور عزيز الدويك رئيس المجلس التشريعي (عن حماس) يتحفظ على الوثيقة، والبردويل (حماس) يعتبرها لعبة جديدة، والنائب عن حماس الدكتور الرمحي يؤيد الوثيقة من رام الله، وخالد مشعل رئيس مكتب حماس السياسي يرفضها من دمشق خوفا على الديموقراطية الفلسطينية.

رئيس الوزراء (من حماس) اسماعيل هنية يرفض الوثيقة ايضا من غزة، والزهار وزير خارجية السلطة الفلسطينية (حماس) يعتبرها مؤامرة، والمشاركون في الحوار الوطني في رام الله يؤيدون، اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني، فتح تؤيد الوثيقة من تونس، كتائب شهداء الاقصى (فتح) تعارض الوثيقة وتتضامن مع حكومة (حماس)، والاجهزة الامنية التابعة للسلطة تؤيد الوثيقة والقوة التنفيذية التابعة لوزير الداخلية سعيد صيام (من حماس) ترفضها!

الجبهة الديمقراطية تؤيد الوثيقة والجبهة الشعبية ترفضها، اللجان الشعبية الفلسطينية ترفض الوثيقة وقوات حرس الرئاسة تؤيدها، نواب فتح في المجلس التشريعي يؤيدون الوثيقة ونواب حماس ما بين متردد ورافض ومتحفظ!

الجناح العسكري للجهاد الاسلامي يعلن تأييده للاستفتاء على وثيقة الاسرى في السجون الاسرائيلية، الجهاد الاسلامي ترفض الاستفتاء وتعتبره محاولة من الرئيس محمود عباس، للالتفاف على الشرعية الشعبية.

الخلاصة ان خمسة فصائل فلسطينية على راسها حماس خرجت اخيرا بموقف موحد في مواجهة فتح والرئاسة لكي تعلن عبر مركز رامتان الصحافي في غزة، بلغة التحدي والرفض والتهديد والوعيد رفض الاستفتاء.

الله اكبر، هذا هو القرار الموحد والصوت الموحد لفلسطين؟ ما هذا الذي يجري؟ وأي مستقبل ينتظر الشعب الفلسطيني في ظل هذا الانقسام الخطير؟ هل هذه هي الديمقراطية؟ انها اكبر مهزلة منذ ايام الانتداب البريطاني وحتى قيام اسرائيل.

يبدو ان هناك خللا عميقا في العقلية الفلسطينية، لا يمكن معالجته الا بالغاء السلطة والحكومة معا والعودة الى خيارين احلاهما مر، الاحتلال والوصاية او قوة الاجهزة الامنية وسطوتها وسجونها العتيدة مثلما حصل في الفترة التي سبقت الانتخابات ووصول الرئيس ابو مازن الى السلطة.

هذان الخياران هما الطريق الوحيد لتجنب شلال الدم الفلسطيني الذي يلوح في الافق لان الجميع في السلطة او المعارضة بعيدون كل البعد عن الممارسة الديمقراطية ويضعون مصير الشعب والوطن على كف عفريت، ويتركون المصير الفلسطيني بيد الشياطين وهواة السياسة، واذا لم يتفقوا ويتوحدوا باعتبار وثيقة الوفاق الوطني التي اطلقها الاسرى في السجون الاسرائيلية، اساساً للحوار الوطني، اقل لهم جميعا: دعوا السلطة واتركوها لشريعة الغاب ربما تكون ارحم من شريعة الديمقراطية الغبية التي تمارسونها باسم الشعب.

حرام عليكم، فلسطين تستحق منكم الترفع الى مستوى المسؤولية ودماء الشهداء التي هي اكرم منكم جميعا، قفوا لحظة وفاء للشهداء وفكروا في اي اتجاه انتم سائرون. اتركوا كراسي الحكومة الزائلة والسلطة وانزلوا الى الواقع وافهموا ان مصلحة شعبكم اكبر من كراسيكم الخربة، فكروا في الرحيل وليس في اشعال الحريق الكبير الذي يعد له البعض من فصائلكم من اصحاب الرايات السوداء والخضراء والصفراء والحمراء والبيضاء.

* صحافي من فلسطين يقيم في الامارات
jmajaida@hotmail.com

الدول الفاشلة في مقياس المستكبرين

محمد خليفة*

■ أصدرت مجلة «فورين بوليسي» الأمريكية المعنية بشؤون السياسة بالتعاون مع ما يسمى «صندوق دعم السلام» الأمريكي تقريراً يتحدث عما يسمى «الدول الفاشلة والضعيفة» في العالم. وقد أحصى هذا التقرير ستين دولة ـ كلها في العالم الثالث ـ قال إنها دول فاشلة. وهناك دول عربية وإسلامية مذكورة في هذا التقرير منها مصر، وال